ويطرح السؤال الضروري نفسه · لماذا يكسر كاتب نصه ، وكيف يجمع مستويين أدبيين متغايرين في بنية ادبية واحدة ، وهل يتم هذا الكسر بوعي او بدون وعي ؟· وفي تلمس الجواب ينبغي معالجة عناصر عدة ، لن نقوم بهذه المعالجة فمكانها ليس هنا ، لكننا سنشير باقتضاب الى عنصرين : مفهوم الاديب لطبيعة عمله الادبي من ناحية ، وشكل الثقافة المسيطرة من ناحية ثانية · ومن قراءة هذين العنصرين نصل الى الجواب او شبه الجواب · ان توفيق فياض يقوم بتدخل واع في نصه الادبي يؤدي الى كسر هذا النص وتنزل قيمته الادبية · يتضمن هذا التدخل موقفين ، احدهما يرتبط بموضوع الكتابة والآخر بالقارىء · فتوفيق فياض لا يميز بين ايديولوجيا قصته من حيث هي عمل فني وايديولوجيته هو كـ « ذات » ، اي يماثل بين الايديولوجيا العامة والايديولوجيا الادبية · يضاف الى ذلك أن فياض يريد ان يصل الى القارىء ، وهذا مشروع ، لكن هذا الوصول او تسريع الوصول لا يتم بأدوات فنية بل بمقال سياسي او أخلاقي مباشر · لذلك نجد في قصته الاولى والثانية (الشيخ لافي ، ابو جابر) ثنائية مستمرة ، صوت الكاتب بصوت العمل الفني ، الفني والايديولوجي ···

واذا رجعنا الى قصة « الشيخ لافي » نجد ثنائية البطل واضحة ، فالبطل الملحمي صنعته ذاكرة الرواة ، أما البطل الاشكالي فصنعته ذاكرة « الكاتب » الذي نسي في لحظة ما أن يوافق بين البطل وشكله التاريخي · « البطل » الاول اثر ذاكرة دينية أما الثاني فأثر ذاكرة أخرى ، لهذا كان « الشيخ لافي » يتحرك في البدء مدفوعا بارادته و « أشواقه » و « ايمانه » ، أما بعد تغير مستواه الفني فقد تغيرت حركته أيضا ، اصبح يتحرك مدفوعا بتناقض العالم وتناقضه مع العالم ·

ان « هدف » القصة ودلالتها الحقيقية ينبغي ان تكون كامنة في بنائها الفني نفسه وليست جسما ملصقا بهذا البناء خارجيا · فالعمل الفني وحدة بلا داخل ولا خارج ، وعندما نتكلم عن داخله وخارجه انما نتكلم عن « انكساره » · وهذا الداخل والخارج نعثر عليه في « ايديولوجيا » قصة « الشيخ لافي الملك » : الايديولوجيا الداخلية هي ايديولوجيا النص التي تعبر عن مفهوم ديني ـ قروي قائم على ثنائية الخير والشر · وتعكس هذه الثنائية الاخلاقية الشرط التاريخي ـ الاجتماعي لمكان الحدث وتتوافق مع الوضع الاجتماعي في زمانها · أما الايديولوجيا الخارجية فهي ايديولوجيا الكاتب التي تسقط الحاضر على الماضي وتتوجه الى القارىء كمقال سياسي مباشر ، اي أنها ايديولوجيا ارادية ، خارج ـ نصية ، راهنة ، فجة · راهنة لانها لا توافق شرطها التاريخي ، وفجة لانها لا توافق المنطق الداخلي للنص بل تجره الى « وضوح ايديولوجي » يتجاوز حدوده التاريخية · الايديولوجيا الاولى تقوم على الخير والشر أي على مقال اخلاقي ، أما الثانية فتقوم على التمايز الطبقي اي على مقال سياسي ·

عكست ثنائية المستوى الادبي نفسها على الاسلوب والكلمات ، فتلاشى عالم الوميض والبراق والبريق ··· وحل مكانه عالم اشكالي « دنيوي » يتطلب مستوى آخر من الكتابة :

ـ « انه لن يهدأ له بال حتى يقطع دابر كل هؤلاء الافندية والباشوات ، لانه على قول المثل « سوس الخشب منه وفيه »وما دام هؤلاء خلفه ، فانه لن يستطيع المحاربة أمامه » ص ٣٧ ·

ـ « فمنذ أن خلق لافي وهو يحارب الاتراك وكل من لف لف الاتراك ، ولم يحمل في حياته صليبا ولا قرآنا ليحاربهم به » ص ٣٠ ·